## المحاضرة السابعة

## المذهب الأشعري ببلاد المغرب

### توطئة

إعتاد المغاربة ترديد إنشاد عبد الواحد بن عاشر ( ت 1040هـ - 1630م)

في عقد الأشعري وفقة مالك و في طريقة الجنيد السالك و هو الكلام المعبر عنه في خيار المغاربة و إنتماءاتهم الدينية و المذهبية ، و قبل البحث في العقيدة الأشعرية أرى أنه من المفيد جدا تحديد مفهومها و ظروف ظهورها و هل فعلا أثرت في الاستقرار المذهبي بالقضاء على مظاهر التناحر و الصدام أم أنه استقرار لركود الفكر و تراجع همة التعبير بعد سقوط دولة الموحدين

### ظروف ظهورها :

لا جدال أن ظهور الأشعرية ، كان أوائل القرن 4 هـ - 10 م على يد أبي الحسن الأشعري ( 324 هـ- 935 م) في ظروف اتسمت بسيطرة النزعة العقلية على علم الكلام المعتزلي من جهة و تفاقم ظاهرة النزاعات النصية التي وقع كثير من أنصارها في مسألة التجسم و قد تزامن ذلك توقف النمو المذهبي باستكمال المذاهب الفقهية بناءها (1) ، و إنتهى الأمر إلى غلق باب الإجتهاد و حصر مجال البحث في الاجتهاد داخل المذهب و الدفاع عنه فكانت النتيجة المواجهة المعلنة بين أهل الدراية و الرواية ( العقل#النقل) و هو ما دفع بالفرقاء إلى الاستنجاد بأهل السياسة بنصرة أفكارهم و إذا كان هدا حل أهل المشرق لم تكن في بلاد المغرب لتشد عن هذه القاعدة

---

(1)- من المذاهب السنية المالكي ،الحنفي ، الشافعي ، الحنبلي من الشيعة الجعفري ، الزيدي ، الاسماعيلي ، الخوارج ، الاباضي و المذهب الظاهري

و إن كان المنحنى العملي للصراع الأكثر وضوحا بين الخصوم و نقصد بذلك الرغبة في إقامة الدولة على حساب نشر الدعوة و هو ما تحقق للخوارج الاباضية في تيهرت و الصفرية في سجلماسا و للزيدية الأدارسة في فاس و العبيدية الاسماعيلية برقادة ، الأغالبة بافريقية للمذهب السني الأمر الذي جعل من الصراع يميل إلى التصادم العسكري بدل النزوع إلى الجدل ، هذا الى جانب ما تعرض له التيار السني (مالكية و أحناف) على يد الشيعة الاسماعيلية و إن كان الصراع يدور حول تأويل النصوص القرءانية و الأحاديث النبوية و شمل ذلك حتى المذاهب السنية فيما بينها.

غير خاف أن ملامح الفكر الاسلامي قد تشكلت أواخر القرن الأول للهجرة و كانت أركانه تتمحور بين الرواية و الدراية القياس أو الأثر و الرأي و الإجتهاد على الايمان و الكفر و مرتكب الكبيرة

لكن مع مطلع القرن 3هـ - 9هـ اقتحمت الفلسفة بمناهجها مجالات الفكر الاسلامي و إعتنت بالبحث على مدى الاتصال أو الانفصال بين الدين و الفلسفة و الشريعة و الحكمة لأجل هذا يفسر توجه المغاربة في معاداة الفلسفة و منتحيليها متهمين إياهم بالضلالة و الشرك و هو ما عبر عنه أبو بكر بن العربي بقوله أن من ليس مالكي قلبا و قالبا فهو ضال و مارق و لذلك وصف ابن مسبرة ( 319 هـ - 931م ) و مسلمة بن القاسم ( ت353 هـ - 964م ) بالضالين المارقين اللذان أتيا بكل مضرة و معرة على حد تعبير أحدهم.

أما المعتزلة فكان الصراع على أشده خاصة و أن هؤلاء جعلوا من العقل دليلا للإنسان لأنه في عرفهم هو من يستطيع التمييز بين الحسن و القبيح و يدرك بأن القرءان حجة و كذلك السنة و الاجماع لذلك رتب بعضهم الأدلة على النحو التالي الكتاب السنة الاجماع و فقط و إذا ظن بأن العقل يدل على الأمور فهو مؤخر و ليس كذلك لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل –لأن – به ندرك أن القرءان حجة و كذلك السنة و الإجماع من حيث أن فيه تنبيه على مافي العقول – كما فيه الأدلة على الأحكام و بها أيضا نميز بين أحكام الأفعال و أحكام الفاعليين و لعل مكانة العقل عند المعتزلة هي التي كانت سببا في ذلك السجال بين الفقهاء في المشرق الاسلامي بعد أن انخرط فيه أهل السياسة أما في الغرب الاسلامي فقد تحصن الفقهاء داخل المذهب المالكي و عارضوا كل من هو خارجه حتى من المذاهب السنية و اكتفوا بحفظ المذهب أكثر من أعمال العقل و حسبنا ما قاله المتكلم الأشعري : أبو بكر الباقلاني ( ت 403 هـ - 1013 م) مخاطبا أبي عمران الفاسي ( 430هـ) لما لاحظه من فرق بينه و بين عبد الوهاب البغدادي ( ت 4ق20 هـ) قال : "أنت تحفظه و هو يفهمه"

و من جهته يؤكد القاضي الأندلسي ابن العربي ذلك الجزع الذي كان ينتاب المغاربة على حد تعبير أحدهم لا تنسجم أراءهم مع مذهب مالك و أنتقد بدوره من أشتم فيهم رائحة علم الكلام حتى أنه صنف القاضي منذر بن سعيد البلوطي ( ت 355 هـ - 965م) من أهل

الضلال لأنه برأيه لقي الجبائي فجاء ببدعة القدرية في الاعتقاد و بنحلة الداودية الظاهرية في الأعمال ,

و إدا كان المغاربة قد أظهروا جزعهم بهذا الأمر فإن المشارقة أظهروا تخوف كبيرا على فكر أهل السنة حين منح العقل السلطة المطلقة في الادراك و إصدار الحكم لأجل ذلك بادر أبو حسن الأشعري عصرئذ و من داخل الجبة الاعتزالية إلى تأسيس رأي اعتقادي مخالف لأراء أصحابه السابقيين من المعتزلة في مختلف القضايا الكلامية ووقف موقفا وسطيا توافقيا بين العقل و النقل و إعتبر الأمر تلازميا

بمعنى لا يستغني أحدهما عن الآخر و علق ذلك بقوله < مثال العقل البصر السليم عن الآفات و الأذاء و مثل القرءان الشمس المنتشرة الضياء فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني إذا استغنى بأحدهما في غمار الأغبياء فالمعرض عن العقل بنور القرءان مثال المتعرض بنور الشمس مغمضا للأجحاف فلا فرق بينه و بين العميان فالعقل مع الشرع نور على نور (1)

**دخول الأشعرية إلى بلاد المغرب :**

صحيح أن لا نملك من الرصيد الوثائقي ما يساعدنا في تحديد زمن دخول الأشعرية إلى بلاد المغرب لكن لا جدال فإن المغاربة أبدوا تمسكا كبيرا بالمذهب المالكي و قد وصل بهم الحد إلى إنكار كل ما لم يقل به مالك و إن كان حديثا نبويا و في هذا الباب نقل الخشني في طبقاته أن فقيها مغربيا اجتمع في الحجاز مع رجل من بغداد فقال له البغدادي روى عن النبي ثلى الله عليه و سلم فقال له المغربي مالك لا يرى ذلك فرد عليه شاهت وجوهكم يا أهل المغرب أتعارضون قول النبي بقول مالك (2) و دون أن نضاعف من عدد الأمثلة التي تعكس شدة تعلق المغاربة بالمذهب المالكي تكفي شهادة المقدسي في تقاسيمه معبرا على لسانهم بقوله لا نعرف إلا كتاب الله و موطأ مالك (3) و هو ما سماه جاك بيرك بمغربة الفقه المالكي (4)

---

(1)- أبو حامد الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد دار الكتاب العلمية بيروت لبنان ص ص 3-4

(2)- الخشني : قضاة قرطبة و علماء افريقية ص 179

(3)- المقدسي : أحسن التقاسيم ص 195 الونشريسي المعيار المعرب ج2 ص 482

(4)- بني ميرت ص 52 مفتاح خلفات قبيلة زواوة ص 339 و حول شدة تعلق المغاربة بالمذهب المالكي : أنظر ابن خلدون المقدمة

و قد واصل عزوف المغاربة عن آراء مخاليفيهم في المذاهب الأخرى إلى البحث عن فتاوى المستجدات حياتهم لم يجدوا لها في منطوق المالكية حلولا لمشكلاتهم الطارئة في آراء فقهائهم المحليين حتى و لو كانت غير مؤسسة و في هذا الباب يقول ابن العربي عن أهل الأندلس" حين حدثت حوادث لم يلفوها في منصوص المالكية فنظروا فيها بغير علم و جعلوا الخلف منهم يتبع السلف و ربما وصل بهم الأمر إلى حد أنهم لا ينظرون في قول مالك و كبار اصحابه و يقولون قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة و أهل طالمنكة و أهل طلبيرة و أهل طليطلة فانتقلوا بذلك من المدينة المنورة و فقهائها إلى طليبرة و طريقها " (1) و اللافت أيضا و في مرحلة لاحقة و خاصة في عهد المرابطين و حسب شهادة المراكشي صاحب المعجب تخلى الفقهاء المالكية عن أصول المذهب نفسه و إكتفوا بكتب الفروع و علق على ذلك بقوله < و كثر العمل يكتب فروع مذهب مالك حتى نسي النظر في كتاب الله و حديث رسوله > و إن بالغ هؤلاء في التعامل مع أصول المذهب

وصل الأمر إلى حد تكفير كل من نخوض في نشئ من علم الكلام و منه نستنتج أن الفقهاء المغاربة انتقلوا من مرحلة الخوف على مذهب مالك إلى خوف من ضياع امتيازاتهم التي حصلوا عليها من فقه الفروع و الخطوة التي حاز عليها هؤلاء عند سلاطين الدولة المرابطية و تزداد قناعتها بهذا الطرح إذ علمنا أنهم كانوا وراء اقناع على بن يوسف بن تاشفين باحراق كتاب الاحياء للامام ابي حامد الغزالي ( ت505 هـ - 1111م ) لأنه ببساطة وصف فقهاء الفروع بأنهم طلاب دنيا.

---

و صار اسم الفقيه يطلق < على من لا يحيط من علوم الشرع بشيئ سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية فيعد بذلك من فحول العلماء على جهله بالتفسير و الأخبار و علم المذهب و غيره

و نستنتج من حصاد ما سبق أن الرأي الغالب في تاريخ الفكر بالمغرب أن الفقهاء وقفوا عائقا أمام الانفتاح الفكري و سدا أمام تقدم العلم و حسنا في ذلك المناظرة التي عقدها علي بن يوسف بن تاشفين لامتحان المهدي بن تومرت سنة 515 هـ الذي بادر مناظريه بالسوال التالي < طرق العلم هل هي منحصرة أم لا > فعجزوا عن الاجابة ثم بين لهم أن " طرق العلم منحصرة في ثلاثة " < الحس و العقل و السمع >

فالحسن على ثلاثة أقسام : متصل و منفصل و ما يجده الانسان في نفسه

العقل على ثلاثة أقسام : واجب و جائز و مستحيل

السمع : على ثلاثة أقسام الكتاب و السنة و الإجماع (1)

و إلى جانب العجز الذي أبداه فقهاء الدولة المرابطية و ما شاب المشهد الفكري المغربي عصرئذ من تقوقع داخل فروع المذهب و إحجام المغاربة من الانخراط الفاعل في التيارات الفكرية

يمكن أن نظيف العوامل التالية :

ميول المغاربة إلى جوانب العملية على حساب الجانب النظري و يكفي أن نذكر بأن عبد الله بن ياسين أقام دولة بألف رجل من أصحابه

و هو الأمر نفسه الذي قام به المعز بن باديس ففي سنة 440 هـ - 1045 حين أسقط المعز بن باديس < خطبة بني عبيد و قطع بنودهم و أحرقها بالنار و حمل الناس >

---

(1)- محمد بن تومرت : أعز ما يطلب : ص 32

حمل الناس على مذهب الامام مالك و قطع ما عداه و إن كانت إفريقية حينئذ تعج بالمذاهب منها الصفرية الاباضية التكارية المعتزلة الشيعة و مذاهب أهل السنة ( أحناف و مالكية ) و لم يبق في أيامه إلا مذهب مالك و إنقلب الموحدين بزعامة ابن تزمرت على المرابطين الذين كانوا يناصرون فقه الفروع

**ثانيا :** قلة الحواضر و هو ما تفطن إليه إبن خلدون و ذلك " يكون البداوة كانت غالبة على أهل المغرب و الأندلس و لم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة و لهذا لم يزل المذهب المالكي غصا عندهم و لم يأخذه تنقيح الحضارة و تهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب "

**ثالثا :** إكتفى المغاربة و الأندلس بدور التقليد لأهل المشرق فيما صدر عنهم من التيارات الفكرية و النحل و الأهواء و لم يعملوا على صياغة مذهب فقهي خاص بهم ( فقهية أو كلامية ) في مجمليها ترديد لصدى المشرق و حسبنا في ذلك رسالة ابن حزم الذي أوردها ابن بسام الشنتريني في ذخيرته و من ثم اشتهر المغاربة على أنهم أهل عمل لا قوم نظر

**رواد المذهب الأشعري ببلاد المغرب**

أشارت المصادر التاريخية أن الفضل في نشر الأشعرية بالغرب الاسلامي يعود إلى عدد من الفقهاء مثل أبي الحجاج يوسف بن موسى الشهير بالضرير المتوفي سنة 520 هـ صاحب منظومة التنبيه و الإرشاد في علم الإعتقاد و هي تلخيص لكتاب الارشاد للإمام الجوني و مثله أيضا أبي بكر بن العربي المعافري ت 543 هـ الذي إلتقى أبي حامد الغزالي و أبي بكر الباقلاني و أخذ عنهم قواعد التحاجج في العقائد و لم يكتفي بما حمله معه من المصنفات في هذا المذهب بل ساهم في تأليف كتب منها العواصم في القواصم ، الوصول إلى معرفة الأصول كتاب المتوسط في معرفة صحة الإعتقاد و الرد على من خالف السنة من ذوي البدع و الإلحاد إلى جانب هذين العالمين تشيد المصادر بالدور الذي قام به المهدي بن تومرت

فإذا كانت السياسة زمن (الدولة المرابطية) التي عملت على تقوية عقيدة أهل التسليم و التفويض فإن إدراج أراء ابن تومرت المشبعة بالتوجيهات الأشعرية في عباءة سياسية

( حزب الموحدين) و هي التسمية التي أطلقها ابن تومرت على أتباعه حين دفع بهم إلى الخوض " في علم الإعتقاد الذي لم يكن أحد في ذلك الزمان يخوض فيه على حد تعبير عبد الواحد المراكشي " و بعد تثبيت أركان الدولة ساعدت عوامل عدة في تسيب تشر الأشعرية في بلاد و إستقرارها نهائيا في بلاد المغرب منها :

**أولا** : تيسير نشر العقيدة بالمؤلفات منها كتابي (أعز ما يطلب ) الذي شمل رسائل في أصول الفقه و التوحيد و الحديث و السياسة و الجهاد إلى جانب كتاب المرشدة

**ثانيا : العودة إلى الأصول و تحقق ذلك بـ:**

الثورة على الفروع بإحراق كتب المذهب بعد أن جردها من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و تقوم شهادة عبد الواحد المراكشي دليلا على ذلك قوله " لقد شهدت منها و أنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع و يطلق فيها النار "

الدعوة إلى ترك التقليد و العودة إلى الأصول بفتح باب الاجتهاد

**نضج الحركة العقلية و العلمية ببلاد المغرب**

إنتشار علم إصول الفقه و العقيدة الأشعرية بشرحها و تبسيطها للعامة إلى جانب مؤلفات الفكرية لأبي بكر ابن باجة ( ت 533هـ 1138م) بتأليفه في المنطق ـ النفس والعقل و اللاهيات و السياسية المدنية و الطب و مثله أيضا أبي بكر بن طفيل ( ت 581 هـ - 1184 م )